تأملات في المنفى

إدوار سعيد

للمنفى شجن دفين لا يمكن التغلب عليه البتة . فهو ينبع من الواقع الأساسي للمنفي ، من الانفصال أو الشرخ الذى لا برء منه بين شخص ما ومكانه الأصلي ، بين الذات وموطنها . صحيح ان الأدب والتاريخ حافلان بأمثلة عديدة للمنفى باعتباره يولد مراحل رومانسية ، بل وامجاداً فى حياة شخص ما ، ولكنها لا تعدو كونها جهوداً للتغلب على احزان الاغتراب المحبطة ، وهى بداية المنفى الفعلي . وبالطبع ، فإن البعض يعودون من المنفى في صورة لامعة (وان شابتها لمسة انتقام) . وهنا تحضرنا اسماء ماو ، ولينين ، والخميني . اما المنفى الحقيقي ، وهو ما يعنيني هنا ، فلا رجعة منه ، لا معنوياً ، ولا واقعياً . ومهما كانت انجازات المنفى ، فيضعضعها دائما الاحساس بفقدان شيء ما تركه الشخص وراءه ، الى الأبد .

ولكل منفى خصوصيته ، الى حد يجعل كلمة منفى نفسها تبدو وكأنها محاطة بعدم اكتراث صفيقٍ عندما توضع على رأس قائمة الظروف العديدة التى تجعل من كل شخص منفيٍّ شخصاً تائهاً ، ووحيداً . وروى لى صديق ارمني يدعى نوبار تفاصيل المسيرة التي اتت به واسرته ليستقر بهم المطاف ، ولو مؤقتاً ، في « سياتل » . وكلما زادت قائمة الأماكن التي ذكرها ، كلما بدت رحلتهم حزينة ومؤلمة . فقد اضطرت أسرته الى مغادرة تركيا في العام ١٩١٥ ، بعد أن تعرضوا للمذابح ، وأعدم جده لأبيه . ورحل من تبقى من الأسرة ، أي والد صديقي ووالدته ، الى حلب ، ومنها الى القاهرة . وفي منتصف الستينات تعذرت الحياة في مصر لغير المصريين ، فسافر نوبار واخوته الثلاثة مع ابويهم الى بيروت بمساعدة منظمة دولية لاغاثة الأرمن . وفي بيروت عاشوا فترة وجيزة في « نُزُل » ، ثم كدسوهم في غرفتين من منزل ناءٍ صغير خارج المدينة ، أرخص ثمناً . وظلوا ينتظرون في بيروت ثمانية شهور بلا مال حتى تمكنت الوكالة المذكورة من ترحيلهم على طائرة الى « غلاسكو » أولاً ، ثم الى « جاندر » ، ومنها الى نيويورك . وتكدسوا مرة أخرى في حافلة من حافلات « غراي هاوند » قطعت بهم الطريق من نيويورك الى « سياتل » ، لمجرد أن سياتل هي

المدينة التي وقع عليها اختيار الوكالة لتكون مستقرهم في أمريكا . ولما طرحت عليه السؤال : « لماذا سياتل » ؟ ، ابتسم نوبار في امتثال ، وكأنه يقول : حتى سياتل ، وهي مكان يبدو غريباً كمستقر لأسرة ارمنية تركية ؛ حتى سياتل أفضل من ارمينيا التي لم نعرفها ابداً ، أو تركيا التي ذبح فيها العديد منا ، وأفضل من لبنان الذى لو بقينا فيه حتى الآن لتعرضت حياتنا للخطر . فالمنفى أفضل من البقاء ، وأفضل من عدم الرحيل ، ولكنه أفضل ليس إلاّ . واحياناً قد لا يكون من المؤكد أنه أفضل .

ودائماً يجيء المنفى نتيجة لتغيرات عادةً ، وليس أبداً ، اما تكون غير متوقعة وجذرية ، تؤثر فى مجموعة من الناس : في اقليات وطنية أو اثنية ، أو في مثقفين ، أو فنانين ، أو مناضلين سياسيين ينتمون الى المعارضة ، أو في مجموعات معينة (من القانونيين أو رجال الكنيسة أو الأطباء) اختيرت لينزلوا بها عقاباً قاسياً لامثيل له . وإن كان صحيحاً أن كل من يمنع من العودة الى موطنه منفي ، إلاّ أن ثمة فروقاً بين المنفيين واللاجئين والمغتربين والمهاجرين ، وان كانت مصائرهم واوضاعهم القانونية كثيراً ما تمتزج . والمنفى ينبع من ممارسات قديمة قدم الدهر : الإبعاد ، وهو عقاب كثيراً ما كان ينزله الحكام الغاضبون بأفراد بسبب جريمة شنعاء . وما ان يبعد الشخص ، حتى يضطر الى العيش منفياً ، في مكان آخر ، وهي حياة غير طبيعية وبائسة ، تدمغه بوصمة الغريب . وتعتبر اقامة « أوفيد » في « تومي » مثالاً شهيراً من أمثلة المنفى فى الأزمنة الكلاسيكية القديمة ، وكذلك يعتبر نفي فيكتور هوغو الى جرسي ، على يد نابليون الثالث ، من الأمثلة الحديثة والمعروفة . أما اللاجئون فإنهم ينتمون الى عصر الدولة الحديثة ، وباعتبارهم مواطنين لدولة ما ، يتقرر انهم قابلون للاستبعاد ، فيرحلون أو يجبرون على الرحيل ، وهنا يتحولون الى أغراب في الدولة التي تؤويهم . وكلمة « لاجيء » قد أصبحت كلمة سياسية تشير الى أسراب من الابرياء الحائرين يحتاجون الى مساعدات دولية ملحة ، بينما كلمة « منفي » تحمل فى طياتها لمسة من العزلة والروحانية ، وهكذا أنتوي تناولها .

ومن ناحية أخرى فإن المغتربين هم أناس اختاروا العيش في بلد غريب لأسباب شخصية أو اجتماعية . ولكنهم لم يجبروا على ذلك ، حالهم هو حال همنغواي ، وفتزجيرالد ، اللذين لم يجبرا على العيش في فرنسا فى بدايات القرن الحالي . ولكنهم قد يشاركون المنفي في بعض الشعور بالوحدة والاغتراب ، وإن لم يخضعوا لقيود المنفى الصارمة . أما المهاجرون فهم حالة هي مزيج من اشياء عدة : والمنفيّون مهاجرون باعتبارهم لا يعيشون فى موطنهم الأصلي ، ولكن المهاجر هو ، بالتجديد ، من يهاجر الى بلد جديد لأسباب سياسية أو غيرها . أي أن باستطاعته الخيار ، وهو ما لا يتاح للمنفي . والعاملون في الادارة الاستعمارية ، وكذلك المبشرون والخبراء الفنيون ، والرحالة والمرتزقة والمدربون العسكريون المعارون ؛ كل هؤلاء قد تنسحب عليهم صفة المنفي ، ولكن وضعهم ، بعيداً عن بلادهم ، تحدده أسباب لا علاقة لها بالإبعاد المتعمَّد . كذلك حال المستوطنين

البيض في أفريقيا ، وفي بعض أنحاء آسيا وأمريكا واستراليا ، فربما كانوا منفيين ، ولكن صفة المنفي تسقط عنهم باعتبارهم من الرواد ومن بناة الأمم .

وقصة جوزيف كونراد « آمي فوستر » التي انتهى من كتابتها في العام ١٩٠١ ، هي من أكثر قصص المنفى شجناً ، وبالتالي من أكثرها دلالة . وكان كونراد ، بالطبع ، قد نفي من بولندا ، وتحمل كل أعماله (بل وحياته نفسها) طابع المغترب الحساس الذي يؤرقه مصيره ووحدته ومحاولته اليائسة للتوصل الى اتصال أفضل ببيئته الجديدة . و « آمي فوستر » ، كقصة تقتصر على مشكلات المنفى ، لا تعالج موضوعات الذنب ، أو قضايا اخلاقية ، أو ظروفاً قاهرة ، وهي المواضيع التي عادة ما تشكل جوهر قصص كونراد ، وهي كلها ، في الواقع ، عن المنفى . وربما كان السبب في أن « آمي فوستر » أقل شهرة ونجاحا من قصص كونراد الأخرى ، أنها قصة شخص منفي بقلم شخص منفي . فلننظر في اسلوب المبالغة الذي لجأ اليه الكاتب لوصف عذابات الشخصية المحورية في الرواية ، يانكو جورال ، وهو فلاح من شرق أوروبا في طريقه الى امريكا ، تقذف به الأمواج بعد غرق السفينة الى السواحل البريطانية .

« كم يصعب على المرء ان يجد نفسه غريباً ضائعا بلا حول ولا قوة ، لا يفهمه أحد ، من أصل غامض ، وفى مكان مجهول من هذه الأرض . ومن بين كل المغامرين الذين قذفت بهم الأمواج فى اماكن نائية من العالم ، يبدو لى ان ليس هناك من عانى من مصير مأسوي كمصير رجلنا ، هذا المغامر البرىء الذى لفظته الأمواج » .

وكان « يانكو » قد غادر أرض الوطن عندما حالت الضغوط دون بقائه هناك . وهو يندفع وراء بريق أمريكا ووعودها ، ولكن ينتهي به المطاف في انجلترا . « هل تتخيلون حياته في انجلترا حيث لا يتكلم لسانها ، وحيث يثير الخوف فيمن حوله ولا يفهمه أحد ؛ حيث يعاني من ضغوط ماديات الحياة اليومية التى تلفه في ظلالها وتقمعه فيراها وكأنها اضغاث احلام » . شخص واحد فقط ، تلك الفتاة الريفية البطيئة الدميمة ، آمي فوستر ، هي التي تحاول ان تقيم جسور الاتصال « بيانكو » ، ولكن طيبتها ثقيلة ومحدودة ومغلولة في نهاية الأمر . ثم يتزوجان وينجبان طفلا يشبه أباه كل الشبه . ويمرض يانكو ، وتعبر آمي عن خوفها واغترابها عنه لا بأن تمتنع عن تمريضه فحسب ، وانما بذهابها عنه مع الطفل ، فهي تتخلى عن يانكو . « لقد ذهبت » ، هكذا يقول يانكو بوضوح للطبيب الذى يجده مصادفة فى المنزل الخاوي ، « ولم أفعل شيئا سوى انى طلبت منها بعض الماء . . . فقط بعض الماء » . ويعجل تخلي آمي بموت يانكو ؛ وموته هذا ، على غرار موت العديد من ابطال كونراد ، هو نتيجة خليط من الوحدة الطاحنة وعدم اكتراث العالم . وكونراد يصف مصير يانكو باعتباره « ذروة الكارثة المنبثقة عن الوحدة واليأس » .

ومعاناة يانكو مؤثرة للغاية ، فهو الغريب الذى يعاني من الوحدة ومن اضطهاد مجتمع لا

يفهمه : ومنفى كونراد نفسه يدفع بالكاتب الى المغالاة فى وصف الفارق بين يانكو وآمي . فهو يوجه القارىء الى التعاطف مع يانكو كل التعاطف ، بينما يقلل من شأن الخوف الطبيعي الذي يعتري آمي ، ومن عدم فهمها ، بل ويجعلها تبدو وكأنها مسئوله عن قتل يانكو . وعلاقتهما تشمل الرومانسية المبالغ فيها للتفاعل المشوب بالأمل بين المنفي وبيئته الجديدة ، والفشل غير المشروط الذي يلحق بهذه العلاقة فيما بعد . وكونراد يجعل من يانكو شخصية جذابة ومضيئة ولامعة العينين ، بينما يصور آمي كإنسانة ثقيلة ، وبطيئة ، وغبية كالبقرة . وعندما يموت يانكو ، يبدو وكأن المشاعر الطيبة التى ابدتها آمي نحوه فى البداية لم تكن سوى فخ نحو سجن افضى به الى الموت . وهكذا يكثف المنفى شعور المرء بأهميته الشخصية ـ فكثيرا ما يتحول منزل الأسرة المتواضع في ذاكرة المنفي الى قصر منيف ، وتتحول الحديقة الى ضيعة مترامية الأطراف ـ فالمنفى يعمق من رومانسية الشخص المنفي ويفرد مساحة بيرونية Byronic بينه وبين عالم غليظ لا يقدره ، بل ويزيد من شعوره بضراوة الموطن الجديد .

وما يثير العطف فى موت يانكو هو أن أحداً لم يستطع أن يفهمه ، ولا حتى آمي ، وهي أقرب الناس اليه . وقد حول كونراد هذا الخوف المرضي الذي يشعر به المنفي الى مبدأ جمالي . وكما يقول مارلو في كتابه « قلب الظلمة » : من المستحيل ان يعبر المرء عن مرحلة ما من مراحل حياته ـ ان يعبر عن حقيقتها ، عن مغزاها ، عن مكنونها المبهم والعميق . مستحيل . فنحن نحيا ونحلم وحدنا » . وأبطال كونراد ، على غرار يانكو ، يعكسون تلك العزلة الرهيبة التى يفرضها الشخص على نفسه في المنفى ، وهي شبيهة بحالة الطفل الذى يفتقر الى أم رؤوم وصبور تفهم وتعفو ، وغياب تلك الأم يجبر الطفل على السعي ، وحده ، يائساً من أجل تعويضها . وما من شخصية في عالم كونراد تستطيع أن تفهم أو أن تمد جسور الاتصال . ومن المفارقة ان هذا القصور الجذري في امكانات الكلام لا يحول دون بذل محاولات للاتصال . فكل روايات كونراد تدور حول أشخاص يعانون من الوحدة ، ويتكلمون كثيراً (هل هناك من بين عظماء الكتاب المحدثين من هو أكثر طلاقة « ونعتية » من كونراد؟) وكل محاولاتهم لانتزاع اعجاب الآخرين تزيد ولا تقلل من شعورهم الأصلي بالوحدة . وكل ضحية من ضحايا المنفى فى روايات كونراد يخاف ، ويتخيل دائماً مشهد موته وحيداً تحت بصر عيون لا تستجيب ولا تتصل .

والمنفيون ينظرون الى غير المنفيين بشيء من الحقد . فغير المنفيين ينتمون الى محيطهم الطبيعي ، بينما المنفي لا ينتمي ، دائماً . ما هو الشعور بان يولد الانسان في مكان ويبقى ويحيا فيه ، يعرف انه منه وفيه الى ما يقرب من الأبد ؟ وامريكا ، باعتبارها أمّة من المنفيين والمهاجرين ، تعكس في قلقها المرضي ازاء كل ما هو ليس بامريكي هذا الشعور بعدم الثقة الذي يراود المنفي امام كل ما هو محلي وأصيل وحقيقي . والمخاوف المحلقة دوما ستنتاب المنفي بسهولة ، وهويته تتدعم بالضغوط السلبية (الريبة والغيرة والحقد) أكثر مما تتدعم بالعوامل الايجابيه (الحب ، والشعور

بالاستمرارية ، والثقة) .

ويقضي المنفي جل حياته في التعويض عن خسارته بانشاء عالم جديد يفرض عليه سلطانه ، لذلك نجد من بينهم العديد من الروائيين وابطال الروايات ، ولاعبي الشطرنج ، والمناضلين السياسيين ، والمفكرين ، والتجار ، والمصرفيين ، ومن يفشلون في التكيف مع المجتمع . والقاسم المشترك لكل هذه الأنشطة هو انها لا تتطلب الا الحد الأدنى من الاستثمار في الأشياء ، وانها تضع القدرة على الحركة والمهارات المحلية فى المقام الأول . ومن المنطقي أن يتسم العالم الجديد للشخص المنفي بالغرابة ، وهذه الغرابة ، أو اللاواقعية ، تجعله عالماً وهمياً . وقد قيل بما يشبه التأكيد إن الرواية ، كشكل من الأشكال الأدبية ، تنبثق من لاواقعية الطموح والخيال ، وهي بذلك أكثر الاشكال تعبيرا عن الحنين الى وطن حنيناً « يتجاوز كل الحدود » . هكذا عبر جورج لوكاش فى كتابه « نظرية الرواية » (١٩١٤) ، وهو كتاب ربما كان أقوى ما كتب عن الأصول الفلسفية والروحية للرواية . ويقول لوكاش أيضا إن الملاحم تنبع من ثقافات مستقرة ، تكون القيم فيها واضحة ، والهويات راسخة ، والحياة ثابتة لا تتغير . اما من ناحية أخرى ، فالرواية ، في أوروبا ، نابعة من تجربة المجتمع المتغير ، ممثلة في شخصية متجولة ومعدمة ، هي شخصية بطله ، أو بطل من طبقة متوسطة ، توجه كل طاقاتها لبناء عالم جديد يشبه الى حد ما عالماً قديماً تركته هذه الشخصية وراءها الى الأبد . فلا نستطيع ان نتخيل روبنسون كروزو ، مثلا ، في جزيرته دون العاصفة التى حطمت سفينته ، ودون المنفى الذي فرض عليه ان يتفنن في العيش فى بيئته الجديدة ؛ وكل هذه الظروف ترمز الى التغييرات التى حدثت فى وطنه الأصلي ، والتي أدت بكروزو الى المنفى وإن كانت ، في الوقت نفسه ، قد حفزت ملكاته وقدراته . كما اننا لا نستطيع ان نتصور روبنسون كروزو بمعزل عن النظام التجاري النشط ، والاقتصاد المزدهر ، السائد آنذاك في وطنه ، والذى يحاول كروزو ان ينشئه من جديد فى الجزيرة . وبينما يواجه « اوديب » و « آخيل » عالمهما الملحمي بقوة لا تنازل فيها ، وهي قوة نابعة من القيم الارستقراطية الثابتة لهذا العالم ، ومن ثقة في النفس لا يثنيها شيء ، فان روبنسون كروزو- على غرار العديد من شخصيات الروايات التي جاءت من بعده - تقذف به الأمواج وهو مجرد من كل شيء سوى قدر كاف من الحذق والقدرة على التدبير ، والأدوات التي يستطيع بها ان يبدأ من جديد .

أما الملاحم فلا يوجد فيها أي عالم آخر ، بل الحدود النهائية لهذا العالم فقط . فاوديسوس يعود الى « أيتاكا » بعد سنوات من التجوال ، وأخيل يموت لأنه لا يقدر على الافلات من مصيره المحتوم . اما الرواية فهي قائمة لأن العوالم الأخرى قد تكون قائمة ، كبدائل للمضاربين من البرجوازية وللرحالة وللمنفيين ، ومع ذلك فان العديد منهم يظل فى متاهات الضياع .

ومهما حقق المنفيون من نجاحات الا انهم يظلون دوما من غريبي الأطوار الذين يشعرون

باختلافهم عن الآخرين ، باعتباره شكلاً من اشكال اليتم (حتى وان جبلوا على استغلال اختلافهم هذا) . ولكننا اعتدنا أيضا النظر الى عالم هذا العصر الحديث باعتباره عالماً يتيماً يعاني من الاغتراب بصفة عامة . فهذا أوان القلق ، وعصر الجموع التي تعاني من الوحدة ، عصر التعلق المرضي بالسلع وعصر الوجود المشتت : عالم العام ١٩٨٤ . فبعد نيتشه لم يعد أحد يشعر بالارتياح للتقاليد . وبفضل فرويد أصبح من المتصور ان يتحول كل ابن الى قاتل لأبيه ، وكل ابنة الى « الكترا » . بل وبلغ هذا الاغتراب وعدم الانتماء ابعاداً عالمية ، بحيث اصبحا يتهددان المنفى الحقيقى بالاندثار . وبالفعل ، فكل من لا وطن له أصبح ينظر الى عادة النفور من « كل » ما هو حديث باعتباره شكلاً من أشكال التكلف ، والتظاهر . والشخص المنفي يتمسك بتلابيب اختلافه عن الآخرين بعزم ، وكأنه سلاح ، ويبقى بمعزل عن الآخرين برغم كل شيء . وعادة ما يتحول هذا الموقف الى شكل من اشكال التصلب والعناد اللذين يصعب التنازل عنهما .

والعناد ، والمغالاة ، والمبالغة في الكلام ، والاصرار الذي لا يلين ، كلها سمات أساليب الحياة فى المنفى ، وهي بمثابة المنهج المتبع لارغام العالم على قبول رؤية الشخص المنفي ، وان كانت من ناحية أخرى تعقد الأمر وتجعل قبول هذه الرؤية متعذراً ، لأن الشخص المنفي ، في قرارة نفسه ، غير مستعد لقبول رؤيته . فالرؤية رؤيته هو . والهدوء والصفاء يكادان يكونان في آخر قائمة الصفات التى ترتبط بما يقوم به المنفيون من أعمال . فاذا كانوا من الفنانين ، فعادةً ما يعوزهم اللطف ، حتى فى أشد لحظاتهم حساسية وتفتحاً ، وتتسلل هذه السمات حتى فى أعظم ابداعاتهم . ورؤية « دانتي » في الكوميديا الألهية ، هي لاشك عظمية التأثير فى عالميتها وفى تفاصيلها ، ولكن حتى حالات الغبطة الهادئة في جنة دانتي تجر في اذيالها شعور الانتقام ، وصرامة الحكم اللذين يتجسدان في جحيمه . ومن ذا الذي يجرؤ على استخدام الأبدية مسرحاً لتصفية الحسابات القديمة غير شخص مثل دانتي المنفي من فلورنسا ؟

وهناك مثال آخر لا يقل غرابة (وان كان يدور فى اطار أكثر علمانية من اطار دانتي) هو جيمس جويس ، الذي اختار المنفى بعيداً عن ايرلندا كوسيلة لاعطاء المزيد من القوة لموهبته الفنية الخاصة . وقد أوضح ريتشارد المان Richard Ellmann أن جويس عمد ، بشكل مذهل في فعاليته ، الى الدخول في معركة مع ايرلندا ، واحتفظ بها متأججة حتى يكتب اعمالاً تعمد أن تكون هي والمألوف على طرفي نقيض . ويقول إلمان : « كلما لاح خطر تحسن علاقة جويس بموطنه الأصلي ، كان يعمد الى البحث عن حدث يدعم تصلبه ، ويؤكد سلامة قراره الطوعي بالعيش بعيداً . وبالتالي فإن الكثير من اعمال جويس يدور حول ما وصفه هو مرة في خطاب بأنه وَضْعٌ من هوَ « وحيد وبلا أصدقاء » ، وهو وضع يحوله بطله ، « ستيفين ديدالوس » الى اسلحة « الصمت والمنفى والدهاء » . وإن ندر أن نجد شخصاً يختار المنفى كأسلوب حياة ، الا أن جويس كان يفهم المنفى كل الفهم ، وكان يصلح لتحمل الكثير من محنه ، خاصة وان هذا المنفى سمح له بأن يصب

الكثير من تمرده فى شخصية « ديدالوس » ، وهي شخصية تتساوى في تعقدها وشخصية جويس نفسه ، وان قلّت عنها انتاجية بكثير . وجويس ، على عكس كونراد ، كان يسيطر على عالمه بثقة كبيرة في نفسه ، تولّدت عنها نظم ومتوازيات وانماط واشكال تنافس الطبيعة نفسها ، بحيث تنجح فى رأب الصدع بين عالمه وعالم الطبيعة ، ذلك الصدع الذي لا يكف عن الشعور به من فُرِضَ عليه المنفى فرضاً .

وقد تبدو هذه وسيلة ملتوية للوم جويس على قصور منفاه ، أو على استخدامه المصطنع للمنفى لتحفيز قواه الفنية كما كان يفعل كولريدج باستخدام المخدرات . ولكن نجاح جويس كشخص منفي يزيد من حدة المفارقة الكامنة في جوهر المسألة ، أي التساؤل فيما اذا كان المنفى حالة من الحدة والخصوصية والبؤس بحيث تجعل من أي محاولة لتوظيفها ، أو حتى مناقشتها ، مسألة تقلل من شأنها ، وتحطّ منها . فاذا قبلنا بأن المنفى الحقيقى هو حالة ضياع نهائي ، فكيف امكن بمثل هذه السهولة تحويل هذا الضياع الى عنصر فني رئيسي ومُثرٍ في الثقافة الحديثة ، والى موضوع تقليدي ومألوف التناول في تاريخ الأدب ؟ كيف امكن لأدب المنفى ان يتبوّأ مكانة جنباً الى جنب مع أدب المغامرات ، والتعليم ، والاكتشافات ، كمقولة للتعبير عن التجربة الانسانية ؟ أهو المنفى نفسه ، الذي يقتل يانكوجورال فعلاً ، أم هو شكل من اشكال المنفى يقل عنه خطورة ؟ ولنعد ادراجنا لنرى ما اذا كان بالامكان التمييز بين انماط من المنفى .

ويعتبر المنفي موضوعاً هاماً باعتباره عنصراً من عناصر التقاليد المسيحية والانسانية الخاصة بالخلاص والافتداء ، من خلال الضياع والعذاب . وليس من قبيل الصدفة ان اختار دانتى شخصية فرجيل دليلاً ، ولا ان اهتمت المسيحية في العصور الوسطى ، وفي عصر النهضة ، كل هذا الاهتمام برؤيا الاينيد Aenid لطروادة تحترق ، ويأتى من بعد حريقها تأسيس مدينة روما . وحتى لو لم يساورنا الشك فى عذابات بترارك في المنفى ، أو فى أسى أنياس لبعده عن مسقط رأسه طرواده ، فنحن نعلم ان ثمة حدثاً أكبر وأهم وأجلّ سوف يحدث . فالمنفى ، اذاً ، تجربة يجب ان تحتمل بغية اعادة الهوية ، بل واعادة الحياة نفسها الى مكانة أدل وأعمق .

وهذه النظرة المفتدية للمنفى هي اساساً نظرة دينية ، وإن كانت قد دخلت في العديد من الثقافات والايديولوجيات السياسية والأساطير والتقاليد ، فاصبح المنفى شرطا مسبقا للتوصل الى وضع أفضل . ونرى ذلك فى قصص عن البطل الذي يجول فى الفيافي والقفار ، وعن منفى الأمة قبل تحولها الى دولة ، وعن منفى الانبياء من ديارهم تمهيداً لعودتهم منتصرين . فهكذا كان الحال بموسى ومحمد وعيسى ، وكذلك اوديسوس والسندباد ، وآدم . وهناك نظرة للمنفى تقل تديناً في ظاهرها ، وان تساوت في طبيعتها العلاجية ، وهي التي اشرت اليها في بدايات هذا المقال ، أي النظرة القائلة بان المنفى هو الوضع العالمي الحديث ، وان ذلك يساعدنا على « فهم أنفسنا » .

ويرجع جل الاهتمام المعاصر بمسألة المنفى الى ذلك المفهوم الباهت بأن غير المنفيين يستطيعون المشاركة في فوائد المنفى ، ولكنها نظرة إلى المنفى تقل قوة عن النظرة الدينية له باعتباره عنصر فداء وخلاص .

ومع ذلك فلا جدوى من استبعاد هذه الفكرة نهائياً ، لأنها كثيراً ما تكون منطقية وحقيقية الى حد ما . وعلى غرار العلاّمة المتجولين فى القرون الوسطى ، والمتعلمين من العبيد الاغريق فى الامبراطورية الرومانية ، فان البارزين من أهل المنفى كثيراً ما يسهمون في إثراء بيئاتهم . ونحن بطبيعة الحال نركز على هذا الجانب من تواجدهم بيننا ، ولا نركز على احزانهم ولا على مطالبهم . ومن ثم فان اينشتاين ، وتوماس مان ، يستحقان من الاهتمام اكثر مما يستحق الهاربون من جنوب شرق آسيا ، ممن سُمّوا « بأهل السفن » . نعم ، نحن نفخر بأن فقراء المهاجرين قد يصبحون مواطنين منتجين ومنتمين . واذا تركنا جانبا الاعجاب الرومانسي الذي يكاد يبلغ حد العبادة بالأجانب المتحدثين لغة البلاد بلكنة اجنبية ، من ذوي الأدب الجم والثقافة (كمارلين ديتريش ، وبيتر لوري وحنا ارندت ، وادوارد تيللر) ، لوجدنا أهل المنفى ، والمهجر ، واللاجئين ، يسيطرون على الساحة الثقافية والجمالية الحديثة . والثقافة الحديثة فى الغرب ، وغيره ، هي ، الى حد كبير ، من نتاج أهل المنفى ، والمهاجرين المثقفين واللاجئين . والحياة الأمريكية الأكاديمية والثقافية والجمالية وصلت إلى ما وصلت اليه بفضل اللائذين من الفاشية وغيرها من الأنظمة التى جبلت على طرد مواطنيها ، أو على قمع المعارضين من ذوي المواهب فيها . بل ان الناقد جورج شتاينر اقترح نظرية ثاقبة مؤداها ان الأدب الغربي الحديث يتضمن شكلاً بأكلمه هو « أدب المهجر » ، وهو أدب عن أهل المنفى وبقلم أهل المنفى ، من امثال بيكيت ، ونابوكوف ، وإزرا باوند ؛ أدب هو بمثابة الرمز « لعصر اللاجئين » . ولذلك يقترح شتاينر قائلاً « يبدو من السليم بالنسبة لمن يبدعون الفن في حضارة شبه بربرية تسببت في تشريد العديد من البشر أن يصبحوا هم أنفسهم شعراء بلا ديار ، ورحّالة عبر حدود اللغة ؛ أناس يتسمون بغرابة الأطوار ، وبالانطواء ، وبالشجن ، وبتعمدهم الخروج على الزمان » .

وهناك عصور أخرى ، غير عصرنا هذا ، شهدت من اللاجئين ومن المنفيين من قاموا بمثل هذه المهام من توعية ونقد ، وممن كانت لهم رؤى تتجاوز الثقافة الواحدة والوطن الواحد ،والذين عانوا من الاحباط نفسه ، ومن الحسد الذي يعاني منه أهل المنفى في كل زمان . وهذه حقيقة اكدها كار E. H. Carr بألمعية في دراسته الكلاسيكية للمثقفين الروس من القرن التاسع عشر، الذين كانوا يتكتلون حول هرتزن Herzen ، وعنوان هذه الدراسة هو « المنفيون الرومانسيون » . وبطبيعة الحال فان الفارق بين أهل المنفى قديماً ، وأهل المنفى في يومنا هذا ، هو فارق كمي ، فعصرنا هو فعلا عصر اللاجئين والمهجرين وجموع المهاجرين . وتماماً كما اتسع مدى اساليب واهداف الحرب الحديثة ، كذلك اتسع مدى الايديولوجية الوطنية ، وان كانت جذورها ترجع الى التاريخ القديم .

فنجد للمرة الأولى أناساً تراودهم مطامع شبه لاهوتية في انشاء دول جديدة ، وتجريد الشعوب الأصلية من اراضيهم ، وتدمير وحبس أو نقل مجموعات بأكملها من السكان غير المرغوب فيهم ، ونجد أن لديهم كافة الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك.. والحكم الاستعماري لَمِثَالٌ على ما تقدم ، وان كانت البدعة السائدة بالافتتان باللامعين من أهل المنفى قد قللت من الأصوات التي تذكر ما سببته الامبريالية من دمار ؛ تلك الامبريالية التى تصرفت بشموخ وبرود الالهة فاعادت تخطيط اقاليم بأسرها ، وتسببت في تشريد أعداد لا تحصى من اللاجئين .

وفي هذا الاطار العام ، وغير الشخصي ، لا يمكن للمنفى ان يحث على الانسانية أو المشاركة . وهذا النوع هو ما نسمية المنفى الدنيوي الذي لا ينطوي على خلاص او افتداء . هي تجربة لا جدوى منها بالنسبة لـ « ستيفن ديدالوس » الذي يجد « انه يسمع بلا انقطاع نغمة المنفي ، المنفي عن القلب ، والمنفي عن الوطن » في اعمال شكسبير . تجربة لا جدوى منها ، لأن النفي على هذا النطاق الذي حدث فى القرن العشرين لم تعد له ابعاد جمالية أو انسانية قابلة للفهم . غاية ما هناك أن أدب المنفى يجسد عذابات ومحناً نادراً ما يعاني منها الأخرون بشكل مباشر . ولكن القول بأن للمنفى فوائد هو تسطيح لما يحدثه المنفى من بتر وتشوهات ، وما يجره من خسارة وضياع على ضحاياه ، ومقاومتهم الصامدة الخرساء امام كل محاولة لتصوير المنفى على انه « مفيد » . وليس صحيحاً أن كل نظرة علاجية ، أو دينية ، للمنفى تخفي عن الوعي كل ما في المنفى من بشاعة ، أو تجرد المنفى من ابعاده الدنيوية التى لا فكاك منها ، ومن جوانبه التاريخية التى لا تحتمل ، أو تتناسى انه من فعل البشر في حق بشر آخرين ، وأن النفي كالموت ، وإن اعوزته رحمة الموت النهائية ، وأنه اقتلع الملايين من البشر من منهل التقاليد والأسرة والمكان . المنفى والسعادة لا يمتزجان ..

وإذا لم نكتف بقراءة شعر المنفي ، وسعينا الى رؤية الشاعر المنفي ، لوجدناه تجسيداً لتناقضات المنفى يعاني في حدّة متفردّة . ومنذ سنوات قضيت بعض الوقت مع فايز احمد فايز ، أعظم شعراء اللغة الاردية المعاصرين . وكان النظام العسكري لضياء الحق قد نفاه من وطنه باكستان ، ووجد ترحيباً ما فى مدينة بيروت التي مزقتها الفتن.. وبالطبع كان الفلسطينيون هم اصدقاؤه المقربون هناك . وعلى الرغم من توافق روحي بينه وبينهم ، إلا أننى كنت اشعر أن لا شيء يتطابق تماماً ، لا اللغة ، ولا تقاليد الشعر ، ولا السيرة الشخصية . مرة واحدة فقط رأيت مسحة الاغتراب تزول عن وجهه ، وذلك عندما جاء الى بيروت منفي آخر من باكستان ، وهو إقبال أحمد . وجلس ثلاثتنا ليلة في مطعم معتم في بيروت الى ساعة متأخرة ، وفايز ينشدنا شعراً . وفجأة كف كلاهما عن ترجمة الأبيات لأفهمها ، ومع تقدم ساعات الليل لم تعد الترجمة مهمة ، فإن ما كنت أراه لا يحتاج الى ترجمة : عودة الى الوطن يلفها التحدي والضياع ، وكأنما يقولان لضياء الحق « ها نحن جئنا » ، برغم أنه هو الذي يسكن الوطن ، ولا يستطيع سماع صوتهم المتهلل .

والدمار الذي يلحق بغير المشاهير من الشعراء المنفيين رهيب كالقوة المركزية الطاردة . فلننظر الى راشد حسين الذى ترجم بياليك Bialik الى العربية ، والذي تبوأ عرش الخطابة والوطنية في مرحلة ما بعد ١٩٤٨ مباشرة ، بفضل سلاسته الشعرية . فقد عمل أولاً كصحفي باللغة العبرية في تل ابيب ، ومن خلال العديد من الأنشطة الثقافية فتح حواراً بين الكتاب اليهود والكتاب العرب ، في الوقت نفسه الذي تبنى فيه الناصرية وقضية الأمة العربية . ومع الوقت ناءت به الضغوط ، فرحل الى نيويورك . وكان متزوجاً من أمرأة يهودية . وبدأ يعمل فى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة ، ولكنه دأب على استثارة رؤسائه بأفكاره الغريبة ، وخطابته ذات الطابع « اليوطوبي » . وفي العام ١٩٧٢ سافر الى العالم العربي ، ولكنه عاد الى أمريكا بعد شهور ؛ لقد شعر بالغربة فى سوريا ، ولبنان ، وشعر بالتعاسة في القاهرة . وآوته مدينة نيويورك من جديد . ولكنه سقط فى احضان فترات طويلة من تعاطي الخمر ، والشلل الفكري . كل ما حوله خراب ، وإن ظل هو أكرم الرجال ترحيباً بالناس . وجاءه الموت بعد ليلة من السكر المبين وهو يدخن في فراشه ، فامتدت النار من لفافة ظن أنه أطفأها ولفت مكتبة صغيرة من أشرطة كان قد سجل عليها شعراء ينشدون ابياتهم ، فاختنق بدخان الأشرطة ، وعادوا بجثمانه الى مصمص ، تلك القرية الصغيرة في فلسطين التى مازالت أسرته تعيش فيها .

والتركيز على المنفى على انه عقاب سياسي هو محاولة تحديد مسالك من الشعور والتجربة تتجاوز الآفاق المألوفة . علينا أولا ان نضع دانتي ، وجويس ، ونابوكوف ، جانباً ، وأن نفكر في آلاف من امثال يانكوجورال انشئت وكالات الامم المتحدة من اجلهم . فلنفكر في اللاجئين بلا مدن ، وبلا أمل كبير في العودة الى ديارهم يوماً . عزّل ، اللهم إلا من بطاقة تموين ورقم في وكالة ما ، هي كل ما يضمن لهم الأوْد . وحتى ان كانت باريس عاصمة معروفة بكثرة المشاهير من اهل المنفى فيها ، فهي ايضا المكان الذي قضى فيه العديد من الرجال والنساء ، ممن لم نسمع عنهم ابداً ، عشرات من سنين البؤس والوحدة : فيتناميون ، وجزائريون ، وكامبوديون ، ولبنانيون ، وسنغاليون ، ومن اهل بيرو . فلنفكر أيضا في القاهرة وبيروت ومدغشقر وبانكوك ومدينة مكسيكو . وكلما شسعت المسافة بالنسبة لعالم المحيط الأطلسي ، كلما كثرت هذه الحالات البائسة ، والاعداد اليائسة ، وصنوف العذاب الذي يعانيه بشر بلا وثائق ، ضاعوا فجأة دونما قصة تُروى . ولو تأملنا في امر المسلمين المنفيين من الهند ، او اهل هايتي في منفاهم بأمريكا ، او اهل جزر البيكيني المنفيين في اوقيانيا ، او في الفلسطينيين في ارجاء العالم العربي ، لا بد لنا ، وبالضرورة ، ان نلجأ الى التفكير في الجوانب المجردة للسياسة الشاملة : في المفاوضات ، وفي حروب التحرر الوطني ، وفي شعوب تطرد من ديارها ، وتدفع او ترمى في مقاطعات مغلقة من مناطق اخرى . ما هي حصيلة هذه التجارب ؟ اليست هي الضياع الواضح والمتعمد الذي لا رجعة عنه ؟

ونصل هنا الى القومية ، ففي ارتباطها بالمنفى مفتاح الاجابة على هذه الاسئلة . فالقومية

تأكيد بالانتماء الى مكان وشعب وتراث . وهي تؤكد الوطن الذي انشيء من منطلق وحدة لسان وثقافة وعادات : وهي بذلك تدرأ النفي ، وتقاتل للحيلولة دون ما يجره من خراب . وليس من المبالغة القول ان التفاعل بين القومية والنفي شبيه بجدلية هيغل بين الخادم والسيد ، اضداد يشكل بعضها البعض ويعرّفه . وكل القوميات ، في مراحلها الاولى ، تشترط التغلب على الاغتراب عن الأصول المحلية للهوية . والنضال من اجل استقلال امريكا ، ومن اجل توحيد المانيا او ايطاليا ، او من اجل تحرير الجزائر ، ما هو الا نضال مجموعة قومية اقتلعت من ـ او نفيت عن ـ اسلوبها الشرعي في الحياة . والقومية المنتصرة ، اي التي تتحقق ، يمكن ان تستخدم بأثر رجعي ، أو مستقبلي ، لتبرير كتابة تاريخ انتقائي ربطت فيه الأحداث في شكل سردي . هكذا نجد ان لكل قومية مؤسسيها ، ونصوصهم الأساسية شبه الدينية ، وحججهم بالانتماء ، واحداثهم التاريخية ، و الجغرافية، واعداءهم وابطالهم الرسميين . وكل هذه العناصر معا تتجمع فيما يسميه بيير بورديو Habitus : Pierre Bourdieu الموطن ، وهو خليط منطقي من الممارسات ترتبط فيه العادة والموطن لصالح اعضائه . ومع مرور الوقت يحدث ما كان جوليان بندا Gulian Benda على حق في الشكوى منه ، اي تنجح القوميات الناجحة المتحفزة في احتكار الحقيقة (كما رأينا في الحجج العلمية للرأسمالية ، او للفرنسيين ، او للاوروبيين في مواجهة الايديولوجيات الشيوعية ، او الآسيوية او الارهابية) . اما من ليسوا من هذه القوميات فهم أقل شأناً ، وهم الكاذبون .

وعلى الحافة الخارجية للاطار الذي تسيج به القومية كأمة حدود ما يفصل بين « نحن » وما هو غريب عنا ، تقع تلك المنطقة الخطرة ، الا وهي اللاإنتماء ، وهي المنطقة التي كانت الشعوب البدائية تنفي اليها من يستحق العقاب ، وهي ايضا المنطقة التي تقبع فيها مجموعات كبيرة من البشر في العصر الحديث في شكل لاجئين ، او مهجرين .

ولجدلية القومية والمنفى جوانب عديدة ، فهي تمس أشياء كثيرة في حياتنا ، حتى ان اي تناول لها بالمناقشة لا بد وان يغفل بعض جوانبها الأساسية . ومن الصعوبات الكبرى التي تواجه من يحاول فهم ارضية هذه الجدلية ، هي ان القوميات تتعلق بمجموعات ، بينما المنفى ، في مغزاه الحاد ، هو العزلة خارج المجموعة ، والافتقار الى مجموعة عضوية لها مكانها الأصلي ، والشعور بالحرمان لعدم التواجد مع الآخرين في الموطن المشترك . فكيف يتغلب الانسان على المنفى دون ان ينزلق في هوة التفاخر والتفخيم القومي ، او في المشاعر الجماعية ، او في انفعالات المجموعة ؟ ما هو الشيء الذي يستحق الانقاذ والتعلق به بين تطرفات المنفى من جانب ، وعنف التأكيدات القومية من جانب آخر ؟ هل القومية والمنفى ظواهر رد فعل الواحد للآخر في الأساس ، أي هل نجد فيهما ميزات كامنة باعتبارهما طرفي نقيض ؛ ميزات لا تقتصر على انقاذ الافراد من مساوىء النقيض الآخر ؟ هل هما شكلان متصارعان من جنون العظمة او الاضطهاد ؟

هذه اسئلة لا يمكن الاجابة عليها بالكامل ، لأن كلاً منها يفترض امكانية الحديث عن المنفى والقومية بشكل محايد ، او امكانية تناولهما منفصلين ، ولا يمكن فصلهما أبداً . وفضلا

عن ذلك ، فان المصطلحين ينحدران من اكثر المشاعر الجماعية جماعية ، ومن اكثر المشاعر والتجارب الخصوصية خصوصية ، فلا توجد لغة مشتركة ومناسبة للاثنين معا . ولنأخذ السرد الروائي مثالاً لما احاول ان اصف . فكما اقترحت من قبل ، نجد كل شعب او امة تبني وعيها الجماعي بذاتها حول رواية قومية تفسر ما نفعله « نحن » ، وكيف صرنا ما « نحن » عليه ، والى أين نتجه « نحن » . وبهذا المعنى فالسرد الروائي في قول فردريك جيمسون هو عملية اجتماعية رمزية مركبة . وهي ليست في متناول كل فرد من افراد الامة بتفاصيلها ، وان كان من المؤكد ، على سبيل المثال ، ان الخطوط العريضة للرواية الامريكية ، من جورج وشنطن الى المصير الحالي ، معروفة في وعي كل امريكي . فالعديد من المكونات المدنية والسياسية للمجتمع تسهر على ايجاد هذا الوعي : كالتربية ، والتعليم ، والمؤسسات العامة ، والقضاء ، والمؤسسات العسكرية ، والرموز المجسدة في الأزياء العسكرية ، وعلم البلاد ، والاعياد القومية والنثر ، والأدب ، ووسائل الاعلام . واهم ما يحققه هذا السرد الروائي القومي هو ان يمد كل من يتمسك به باستمرارية متفق عليها ، تحافظ على الشعور بالهوية الذاتية ، وبالهدف القومي المتوقع من كل الامم ، ومن كل فرد فيها .

وانا اعتقد انه كلما ازدادت الاستمرارية السردية قومية ومركزية ، ازداد تصاعدها ، وقل تسامحها ازاء الأشكال الاخرى للسرد التاريخي . والمسألة ليست مجرد تفوق اهمية المجموعة على اهمية الفرد ، وهي مسألة صحيحة في حد ذاتها ، وانما هي انه كلما زاد سرد الرواية انتشارا وقومية ، كلما ازدادت قوته وسلطته ، وعادة ما تتحقق القوة والسلطة كنتيجة للمعارضة . وعلى سبيل المثال فان الحروب التي تنتهي بالنصر اساسية في السرد الروائي القومي . وكذلك وجود حكومة مركزية تحتكر القمع وما الى ذلك من امور .

فإذا نظرنا إليها من هذه الزاوية ، نجد الروايات القومية أكثر بكثير من مجرد قصص بريئة تروى للتلاميذ ، واكثر من مجرد اقسام مما اسماه الرومانسيون الالمان في بدايات القرن التاسع عشر بالتجربة الشعبية ، التي تتمتع بمكانة مشابهة لمكانة القصص الخرافية ، والأطباق الاقليمية ، والأزياء المحلية . الرواية القومية تتجه الى فرض الرقابة على المجتمعات ، بحيث لا تترك الا مجالاً محدوداً للخلل ، او القلاقل التي قد تنبع من التجربة الشخصية ، او من مجموعات المعارضة ، والا لحدث ما رأيناه في لبنان مؤخرا من حرب اهلية ، وهي النتيجة المباشرة لتعدد الروايات القومية المختلفة في صراع مباشر فيما بينها ، كل منها يسعى الى فرض رؤ يته الخاصة لماضي وحاضر ومستقبل البلد ككل . وهناك في لبنان رواية مارونية للتاريخ ، تبدأ بمجموعة مسيحية يدعى انها انحدرت عن الفينيقيين ، وينظر الى تاريخها باعتباره مرتبطاً باوروبا المسيحية ، ويزخر هذا التاريخ بزمرة من الأبطال والمعارك الكلاسيكية التي تدعم رواية الصراع ضد بيئة محيطة من المسلمين والعرب . وبصفة عامة فان الاتحاد الدرزي - السني - الشيعي (وهناك اختلافات كبرى بينهم برغم اتحادهم) يرى في لبنان بلداً عربياً ، ترجع اصوله الى تاريخ العرب ، وهذا معناه سلسلة من الاحداث ، والتواريخ ، والعقائد الجوهرية ، والمراجع ، تختلف

تماماً عن الرواية المارونية . إذاً فلا توجد رواية لبنانية واحدة تتفق عليها كل الأطراف ، وفي ذلك ضمان لاستمرار النزاع ، كما ان فيه ضرورة ملحة لرواية متماسكة يرضى بها معظم اللبنانيين .

فاذا سلمنا بهذه الحقائق المؤسفة ، نجد ان المنفى حالة للوجود غير المتصل ، فأهل المنفى اجتثوا من جذورهم ومن ارضهم ومن ماضيهم ، وعادة ما لا تكون لهم جيوش ولا دول ولا سلطات مركزية ، وان كانوا ، وهذا شيء هام ، دائبي البحث عنها ، وبالتالي فان العديدين من اهل المنفى يشعرون بحاجة ملحة الى اعادة تشكيل حياتهم المحطمة في شكل رواية يختارونها من عدة بدائل متنوعة . واهم ما يجب ان نلاحظه هنا هو ان حالة المنفى الخالية من روايات منبعثة ـ تلك الروايات التي يقصد بها لمّ شتات تاريخ اهل المنفى في كل جديد ـ هي حالة لا تحتمل ، وتكاد تكون مستحيلة في عالم اليوم . وسأعود الى هذه الملاحظة فيما بعد . ولنأخذ الآن حالة سوفييتي منشق او منفي مثل سولجينيتسن (وهو ، بالمناسبة قاص) . فهو قد ظل وطنياً ، اللهم ان روسيا هي التي عصفت بها خارج مسار تاريخها الحقيقي (وهذا ما يعرفه سولجينيتسن بالطبع) (!!) . وهو ، فضلاً على ذلك ، يعرف التاريخ الحقيقي للغرب ، والذي حاد عنه الغرب ايضاً ، وبالتالي ، وبما يتفق والأشكال النابعة من المنفى ، نجد سولجينيتسن يقدم حلا مبالغاً فيه لما أصاب تجربته الشخصية من انقطاعات ، اي نجده يقدم روايةكونية وغير وطنية في خطوطها ، وأقل تحفظا بكثير من الروايات القومية التقليدية . وبنظرته هذه للامور ، يسعى سولجينيتسن الى اصلاح العالم كله ، ورده الى المعقولية والاستمرارية . اما لو كان الحال حال سوفييتي آخر أقل ابداعاً من سولجينيتسن ونُفي ، لاكتفى بالعمل في خدمة الأمريكيين : وهذا ما يفسر وجود المرتدين ، والخونة ، والمغتربين سياسياً بيننا ، وهم يتعيشون في بيئتهم الجيدة داخل الاطار البالغ التسيس للحرب الباردة .

ثم هناك من اهل المنفى يهود وارمن وفلسطينيون . وكل منهم ، دون استثناء ، خطا خطوة تبعده عن تجربة الكارثة المدمرة نحو عملية محاولة تحويل مجموعة اللاجئين الى امة ، وهي عملية غامضة ، بل وربما تكون بيولوجية في ديناميكيتها من حيث نتيجتها ، وجل هذه الطاقة الجبارة التي تولدها الحركات القومية التي اعيد بناؤها ينبع من ادب المنفى وتصويره وتضاريسه . فكم من دلالات مكثفة تحيط باسماء وتواريخ مثل بابل ، واوشفيتز ، وصبرا ، وشاتيلا ، والرابع والعشرين من نيسان (ابريل) العام ١٩١٥ ! ومع ذلك فعندما تتقاطع الحركات القومية او تصطدم فان اسوأ مظاهر القومية والمنفى تتجلى في تصارع المصالح بحدة ، مبددة كل ما يراود المرء من احلام عن القومية كخلاص ، او عن المنفى باعتباره الحكمة التي تتولد عن المعاناة .

والمنفى في قراراته حالة غيورة ، صاحبها لا يمتلك الا القليل ، فيتشبث بماله دونما عطاء يذكر ، ويدافع عنه بعدوانية ملحوظة . وما ينجزه او يحققه المرء في المنفى هو بالضبط ما لا يرغب في المشاركة فيه ، وهذه الخطوط التي يحيط بها اهل المنفى انفسهم هي التي تبرز اسوأ جوانبهم : اولاً شعور مجدد ومبالغ فيه بتضامن المجموعة ، وثانياً عداء جارف للغرباء ، حتى

الذين تتشابه ظروفهم واياهم . وحتى لو تناسينا الأهمية التاريخية والسياسية للصراع بين اليهود الصهاينة والفلسطينيين العرب ، فهل من تصلب - فيما يشهده العالم اليوم - اعنف من ذلك الذي يشوب نزاعهم ، وهو نزاع بين منفيين ومنفيين ؟ والفلسطينيون من جانبهم يشعرون انهم حولوا الى اهل منفى على يد اليهود الذين عاشوا عبر التاريخ في المنفى . ولكن من ناحية اخرى ، يعرفون ، ايضاً ، ان احساسهم بهويتهم القومية قد ترعرع في بيئة المنفى ، حيث كل من لا تربطهم به صلة الدم عدو ، وحيث يرون العالم كمكان تحاك فيه المؤامرات لتدميرهم ، وحيث كل متعاطف عميل لقوة معادية او اخرى ، وحيث اقل خروج على الخط الذي ارتضته المجموعة هو ابشع صنوف الخيانة والخداع .

وربما كانت هذه الطريقة هي الوحيدة التي تسمح بفهم اغرب مصير واعجب منفى ، اي أن يُنفى شعب على يد منفيين ، وان يحكم عليه ، الى ما يبدو وكأنه الأبد ، ان يعيش مرة اخرى عملية الاقتلاع بيد منفيين يبدو وكأنهم يتطلبون تكرار الرواية لأسباب يصعب على معظم الفلسطينيين فهمها . وفي صيف العام ١٩٨٢ تساءل كل الفلسطينيين عن ذلك الدافع الخفي الذي دعا اسرائيل ، التي اخرجتهم في العام ١٩٤٨ ، الى مطاردتهم لاخراجهم من ديارهم ومن معسكرات اللاجئين في لبنان . ان آداب الغرب الحديث زاخرة بقصص اضفت عليها نبلاً ونوراً : قصص الاضطهاد والضياع الذي عانى منه اليهود وقصص انجازاتهم : ولكن هذه الروايات تفقد من مقبوليتها عندما تؤدي بقوتها واستمراريتها ووجودها الى هذا الأثر الذي اضيف اليها في اطار الصهيونية والهجرة اليهودية ، الا وهو ان تُصَوِّر الروايات الفلسطينية إما باعتبارها إرهاباً بحتاً ، او لغو شعب لا اهمية له ، يجب ان يطارد ويطرد من اي مستقر . وكأن الرواية اليهودية لا ولن تحتمل التعايش وهذه الرواية الاخرى المرتبطة بها ، والتي تحكي قصة الاستلاب والضياع هي ايضا . وهذا الرفض يدعمه تماماً عداء اسرائيل للقومية الفلسطينية التي تسعى منذ العام ١٩٤٨ ، وبشق الأنفس ، الى تجميع شتاتها في مؤسسات وهوية قومية حتى في المنفى .

ونجد هذا الاحساس بدقة ، الاحساس بالحاجة الى اعادة بناء الذات من شتات وظايا المنفى ، في القصائد المبكرة لمحمود درويش ، وتعتبر اعماله محاولة خارقة لتحويل اغاني الضياع الى دراما العودة المؤجلة الى ما لا نهاية . وهكذا نراه في الأبيات التالية يصف شعوره بفقدان الدار في شكل قائمة من اشياء غير مكتملة :

ولكني انا المنفيّ خلف السور والباب
خذيني تحت عينيكِ
خذيني اينما كنتِ
خذيني كيفما كنتِ
ارد اليَّ لون الوجه والبدنِ
وضوءَ القلب والعين
وملح الخبز واللحن

وطعم الأرض والوطن
خذيني تحت عينيك
خذيني لوحةً لوزية في كوخ حسراتِ
خذيني آيةً من سفر مأساتي
خذيني لُعْبَةً، حجراً من البيت
ليذكر جيلنا الآتي
مساربه الى البيت.

ولوعة المنفى هي انقطاع الصلة بصلابة الأرض وطيب حضنها . والعودة الى الدار غير واردة . فإن « انتياس » لم يهزم الا عندما رفعه هرقل عن الارض وسحقه ، فلما انقطعت صلة العملاق بالأرض لم يعد باستطاعته ان يمتص قوتها . ولكن القوة التي تستمد من القومية ـ وهي قوة غير متسامحة ومتشددة ومتعنتة ـ بغية تعويض القوة المستمدة من الارض ، تخفي حقيقة المنفى والاستقلال الجذري الكامن فيه . فالقومية تطمس الذاكرة ، لأن شجن الذاكرة الثقيل لا يسمح الا بالحنين وعدم الاستقرار ، وهي جوانب قد تكون من أهم الاسباب التي تدفعنا الى قراءة بروست وبنجامين . ومن الامثلة الاخرى البسيطة على حساسة القومية ، تلك الطريقة التي يستبدل اهل المنفى بها اسماءهم الاصلية الغريبة بأسماء باهتة و « عادية » في بلادهم الجديدة ، او بطريقتهم في نطق كلمات التوكيد بلكنة ثقيلة ، وغير متعمدة ، بحيث تبرز عن سياق الحديث .

ومنذ نحو جيل مضى ، طرحت « سيمون فيل » قضية المنفى بحدة لم يفقها فيها احد من قبل . فحتى لو اختلفنا ، وانا اختلف فعلاً ، مع برنامجها الذي يغلب عليه الطابع الديني ، والذي ينادي « بمد جذور » ، فان اعترافها وتصويرها للمنفى لم يفقد من قوته الكثير الى يومنا هذا ، اذقالت : « قد يكون مد الجذور من اهم احتياجات الانسان الروحية ، ومن اقل الاحتياجات المعترف بها » . ولكنها اعترفت ايضاً بأن معظم اشكال العلاج الحديثة لحالة اقتلاع الجذور في عصر الحروب العالمية ، والاعتقالات ، والابادة الجماعية ، هي اخطر بكثير من الاعراض التي تبغي علاجها . والدولة أو نظام الدولة ، الذي وصفته بأنه اخطرها ، هي من بين هذه الوسائل لأن عبادة الدولة تميل الى فرض ارتباط بها يحجب كل الارتباطات الانسانية الاخرى (الاسرة والتقاليد والمهنة) .

وسيمون فيل . في رأيي ، تعرّضنا مرة اخرى لكل الضغوط والقيود التي هي جوهر محنة المنفى . فلدينا من ناحية واقع العزلة والغربة الذي لا يسبب الاحساس بالضياع والغربة فحسب ، وانما يولد نوعا من المازوكية النرجسية تقاوم كل محاولات التحسين والتأقلم والمشاركة . فاذا وصل الشخص المنفي الى هذا الوضع الاقصى ، فانه قد يحول المنفى الى صنم يعبد ، مما يؤدي اخيرا الى ابتعاد عقيم عن كل ارتباط وعن كل التزام ، فيعيش المرء وكأن كل ما حوله

مؤقت بل وربما تافه ، ويقع ضحية استخفاف طفولي بكل شيء ، وينزلق في مخاطر فقدان القدرة على الحب . اما من ناحية اخرى ، فهناك الضغوط التي تمارس لحث الشخص المنفي على الانضمام الى احزاب او حركات وطنية ، او الى الدولة . فاذا حدث ذلك ، فان ولاءه الجديد يطمس فيه كل ما يتعلق باحساسه بفقدان جذوره ، ويواكبه فقدان للنظرة النقدية والاعتدال الفكري والشجاعة الادبية الحقة . وقد نجح كونراد في تصوير وجهي المنفى ، اولا ، في احساس يانكو بالاغتراب الذي يبلغ حد الانانية (والا فلماذا سمح لنفسه بمثل هذه الهشاشة في مواجهة المرض والعزلة بعد ان قضى كل هذه السنوات في انجلترا ؟) ثم صوره ، ثانيا ، في انجليزية آمي الثقيلة الخالية تماما من التأمل (والا فلماذا لم تبذل المزيد من الجهد للتغلب على ما يفصلها عن والد طفلها ، برغم الضغوط التي كانت تدفعها لمسايرة مجتمعها الريفي الصغير ؟) .

وفي محاولة ايجاد قدر من القيمة بين هذين البديلين المستحيلين ، لا بد لنا من الاعتراف بأن القومية الدفاعية لدى المنفيين ، لأنها تلزم الناس على مستوى الجماعات ، كثيرا ما تنطوي على وعي بالذات يساوي ما تنطوي عليه من اشكال غير مستحبة لتأكيد الذات ، واعني بذلك ان مشاريع اعادة البناء هذه ، كمشروع تجميع امة من اشلاء المنفى (وهي حقيقة تنطبق في قرننا هذا على اليهود والفلسطينيين) ،مشاريع تشمل بناء تاريخ قومي ، واحياء لغة قديمة ، واقامة مؤسسات قومية كالمكتبات والجامعات . وهذه المؤسسات وان صح انها عززت التركيز الحاد على الاحساس بالاثنية، الا انها تؤدي ايضا الى بحث وسبر في اغوار الذات ، يتجاوزان الحقائق البسيطة ، الايجابية ، مثل الانتماء الى اثنيةما ،ليصلا الى الوعي بالذات لفرد واحد يحاول ، مثلاً ، أن يفهم السبب في أن لتاريخ العرب واليهود أنماطاً ، كالتساؤل عن سبب الاحتفاظ ببعض الطباع المميزة حية في المنفى ، وذلك برغم القمع والتهديد بالابادة ، والتساؤل عن الروابط الخ .

وبالضرورة فإني لا اتحدث عن المنفى كمكان متميز من التأملات الذاتية لفرد ما ، ولكني اتناوله كمكان بديل لمعظم المؤسسات الجماعية التي تمد ظلالها على الحياة الحديثة . والمنفى ، في نهاية المطاف ، ليس بمحض اختيار الانسان ، سواء ولد فيه او اصيب به ، واذا رفض المرء ان ينضم للقطيع دونما نقد ما ، ورفض أيضاً الجلوس في اطراف الساحة يلعق جراحه الى الأبد ، فهناك من الامور ما يمكنه ان ينميها في المنفى ، بل من زاوية ما ، لا تنمى الا في المنفى . وسنستطيع ان نسمي ذلك الشيء : الولاء لشروط المنفى ، واهمها توخي شكل أمين من الذاتية لا تشوبه مغالاة او تدليل .

ولعل من اشد الأمثلة الحديثة التزاما بمثل هذه الذاتية هو تيودور ادورنو ، الفيلسوف والناقد الالماني ، اليهودي ، ورائعته **مينما مورالیا** (نشرت في العام ١٩٥١) ، وهي سيرة ذاتية كتبها وهو في المنفى (١٩٤٥ - ١٩٤٧) ، وعنوانها الفرعي « تأملات من حياة مبتورة » . فهو يعارض فيها ، وبلا رحمة ، ما اسماه بالعالم « المدار » ، ومن زاويته كمنفي رأى ادورنو الحياة كلها

مضغوطة في قوالب جاهزة ، في « بيوت » مصنعة مسبقاً . وبالتالي استطرد قائلاً أن كل ما يمكن للمرء ان يقول ، او يفكر ، أُنتج ليستقر في شكل شيء قابل للتحويل الى سلعة ، مثله في ذلك مثل كل الأشياء الاخرى . فاللغة رطانة ، والأشياء معروضة للبيع ، وهنا تصبح المهمة الفكرية للشخص المنفي ان يرفض هذه الأوضاع فيما اسماه ادورنو بممارسة الجدلية السلبية . فكما حدد هيغل وماركس ، في البداية ، فان منهج الوصول الى بلورة تراكمية قوية يمكن ان يتم من خلال الشيء ونقيضه . وها هو ادورنو يعترف ان كل من ينتمون الى تقاليدهم التي اصبحت الآن تقاليده ، لا بد وان يفكوا مكونات العملية ، او ان يبددوا ثقلها المتراكم الذي أدى في القرن العشرين الى فرض قوالب على كل ما يوجد في المجتمعات الصناعية .

وبلغت جدية تناول ادورنو لهذا المشروع ان اختار لكتابة سيرته الذاتية شكلاً يختلف عن السرد المتتابع ، اختار شكل المقاطع غير المتتالية . وبما ان مفهوم «السلعة» قد تسرب الى جوهر المجتمع الحديث ، فلم يعد لأي مقولة خاصة بالهوية او التعريف ان تكون صحيحة ، كالقول ان كتاباً ما هو « س » او « ي » . واضاف ادورنو ان حتى الحروب ، ببشاعتها ، تجد لقوتها المباشرة أمانا لها في « الاخبار » ، وذلك في كل المجتمعات المدارة . فالحياة نفسها والاسلوب حقيقتان طالما هما في جانب المعارضة ، بعيداً عما هو قائم : « الحياة الفعلية لا تكون ولا تقدر على ممارسة الاستقراء حقيقة الا بمنأى عن الحياة . فبينما الفكر يرتبط بالحقائق ويتحرك من خلال نقدها ، الا ان حركة الفكر تظل تعتمد على احتفاظها بالمسافة المشار اليها . فالفكر يعبر عما هو قائم بدقة ، لأن ما هو قائم لا يطابق تماما صورته كما يعبر عنها الفكر » . (١٢٥) . ثم يعود ادورنو فيضيف : « المسافة ليست بمنطقة أمان ، ولكنها ساحة توتر » حيث يكمن خطر « اضفاء صفة التقنية على البعد الداخلي » ، وهو بهذا الاعتراف يظل وفيًا لمنهجه السلبي الصارم .

وتأملات ادورنو حول حياته الخاصة تمر من خلال ساحة التوتر هذه ، التي « لا يبقى فيها شيء بريء او حميد » ، وحيث لا يبقى للكاتب موطن سوى نصه الهش القابل للانكسار . وفي موضع آخر يقول : الموطن ماض ، وان دك المدن الاوروبية بالقنابل ، مثله مثل معسكرات السخرة والاعتقال ، لَهُوَ بمثابة منفذ لحكم اصدره تطور التكنولوجيا منذ زمن طويل حول مصير البيوت التي لم تعد تصلح الا لاستعمال مؤقت ، تُرمى بعده كعلب المأكولات الفارغة . وامكانية الاقامة قد قُضي عليها تماماً بفعل المجتمع الاشتراكي ، فهو ان لم يصب الهدف يهدم اركان الحياة البورجوازية » . ويصل ادورنو الى النتيجة التالية : « إن أفضل نهج سلوك ازاء كل هذه الامور هو عدم الالتزام ، والبقاء المعلق : أي أن يعيش المرء حياته الخاصة طالما ان النظام الاجتماعي واحتياجات المرء لا تقبل بغير ذلك ، شريطة ألا يُضفي عليها الأهمية التي تُضفى على شيء ملموس اجتماعياً ، ومناسب على الصعيد الشخصي » . وخلاصة القول ان ادورنو يعلن بسخرية جادة : « أن لا يشعر الانسان براحة ، وانتماء في بيته ، فهذا جزء من الاخلاقيات المطلوبة » .

قليل من سيرغبون في تقليد ادورنو ، ومجاراته في وقفته الصارمة في وجه كل ما هو غير اصيل . وهو لا يُلام ، وان بدت عزلته الغيورة معبرة برغم انفها ، فان نثره الصعب والرامي أبداً الى ازالة الأقنعة يرغم القارىء على تغيير نظراته الى بيته نفسه ، ويحرر وعي القارىء نسبياً بحيث يتمكن من النظر الى داره نظرة متجردة نوعاً ما ، اي نظرة الشخص المنفي ، والا فإن عقل الشخص المنفي الذي لم يتغلب بعد على صدمة فقدان الديار ، والذي يشعر بالريبة في مواجهة ارتباطات لا يعرف مداها بعد ، عقله هذا، قد يغوص في موقف استسلام لا أمل فيه . وهذا ما فعله ادورنو في النهاية . ولكن المهم انه يحرك الآخرين ويشجعهم على ملاحظة وتسجيل المفارقات بين المفاهيم والواقع ، بل والنزاع بين نظم مختلفة من القيم العميقة؛ تلك القيم التي نقبل بها ، مثلما نقبل اللغة ، قضية مسلمة والتي ترسخ افتراضاتها فتصبح عقائد جوهرية لا تخضع للمساءلة او التفكير .

والمغزى يرمز إلى واقع أن البيت ، في عالم علماني وعرضي ، هو شيء مؤقت ، بل وان الحدود والحواجز ، وان كانت مفيدة لأنها تسيجنا فتحتفظ بنا في جو من الالفة والأمان على ارض معروفة هي وسكانها ، الا انها يمكن ان تتحول الى سجون او معازل نحميها بعنف يفوق الحاجة او التعقل .

وثمة مقطع له جمال لا ينسى بقلم هوغو عن سانت فيكتور ، وهو راهب من ساكسونيا عاش في القرن الثاني عشر ، يقول فيه : « وبالتالي ، فان العقل المتمرس يكتسب فضائل عظيمة إذا ما تعلم ، تدريجيا ، ان يغير ويبدل في الأشياء المرئية والعابرة ، حتى يتمكن بعد ذلك من تركها وراءه نهائيا . والرجل الذي يجد في وطنه مصدر سعادة ما زال رجلاً مبتدئاً ، اما الذي يجد في كل تراب وطناً فقد صار قوياً ، ولكن لا يبلغ الكمال الا من اعتبر العالم أجمع ارضاً غريبة عليه . فذو الروح الحنونة يركز حبه في مكان واحد من العالم ، والرجل القوي هو الذي يشمل بحبه كل الأماكن ، والرجل الكامل هو الذي اطفأ جذوة حبه » .

أما عن ايريك اورباخ ، عالم الآداب العظيم من قرننا العشرين ، فقد قضى سنوات الحرب منفياً في تركيا ، وهو يطرح المقطع السابق مثالا لكل من يرغب في تجاوز قيود الحدود القطرية والاقليمية . وبذلك فقط يمكن للمؤرخ مثلاً ، أن يبدأ في فهم التجربة الانسانية وسجلاتها المكتوبة في تنوعها وفي خصوصيتها ، وإلا ظل اكثر التزاماً بردود فعل الرفض والتحيزات منه التزاما بالحرية السلبية المرتبطة بالمعرفة الحقة . ولنلاحظ ان هوغو يوضح مرتين ان الرجل « القوي » او « الكامل » ، يحقق استقلالاً وبعداً من خلال الارتباطات ، وليس بمجرد رفضها . والمنفي يستند على وجود الحب الحقيقي للوطن الأصلي للانسان ، وعلى الارتباط به . وعالمية المنفى لا تكمن في فقدان المرء لهذا الحب او لهذا الموطن ، وانما تكمن في هذا الضياع غير المتوقع الذي يتضمنه كلاهما . فلننظر الى التجارب اذن وكأنها على وشك الزوال : فما الذي يربطها بالواقع ويمد جذورها فيه ؟ ماذا يمكن ان نحتفظ به منها ، وماذا نتخلى عنه وماذا نسترد ؟

والاجابة على هذه الاسئلة تتطلب استقلالا وعدم ارتباط من جانب من يشعر أن وطنه « عذب » ، بينما ظروفه تحول دون استعادة هذه العذوبة او اخذها في الاعتبار ، وتستبعد تلك العذوبة من البدائل المنبثقة عن الأوهام او العقائد الجوهرية .

وقد يبدو هذا القول بمثابة وصف علاج للنظر الى المستقبل بكآبة لا يخفف من حدتها شيء ، ولموقف الرفض من كل حماسة ، ولكنه ليس كذلك بالضرورة.. وان بدا غريباً أن نتحدث عن لذات المنفى ، الا ان ثمة بعض الصفات الايجابية لقلة من ظروف المنفى ، خاصة عندما « ينظر المرء الى العالم اجمع باعتباره ارضاً غريبة » فإنه يصل الى رؤية فريدة . فلمعظم الناس وعي بثقافة واحدة ، ومكان واحد وموطن واحد : اما اهل المنفى فلهم وعي باثنين على الأقل ، بل واكثر . وهذه التعددية في الرؤية تؤدي الى ما يسمى بفهم لاي مسألة بجانبيها ، كما انه يؤدي اساسا الى وعي بابعاد متزامنة ، وفي لغة الموسيقى يسمى ذلك وعي النغمة وصداها ونقيضتها . وبالنسبة للشخص المنفي ، فان عادات الحياة والتعبير والنشاط في البيئة الجديدة لا بد وان تسير ووراءها ذكرى او معرفة بمثيلاتها في بيئة اخرى . فلنأخذ مثالاً : إذا قرأ عربي القصص والروايات الاوروبية ، فهو يفعل ذلك بوعي بماهية الرواية ، وكذلك بخلفية ثقافية عربية لم تدخلها الرواية الا في بدايات القرن العشرين ، ولذلك فيمكنه البحث في دور الطاقات الانسانية التي انصبت في الرواية ، في انجلترا ، بينما اتجهت اتجاهاً آخر في مصر او في سوريا مثلاً .

والبيئة الجديدة والقديمة نابضتان في وعي الشخص المنفي ، بل قائمتان بشكل ما ، ومتزامنتان كالنغمات الموسيقية . ولمثل هذا الوعي استمتاع فريد من نوعه ، خاصة وان واكبه عند الشخص المنفي وعي بابعاد واضداد اخرى تقلل من صرامة حكمه ، وتسمو بتعاطفه وتفهمه . كما ان هناك إحساساً بالانجاز يكمن في نوعين آخرين من انواع انشطة المنفى : التفوق على مواطنيه الجدد في قدراتهم المحلية (فلنتذكر كونراد ونابوكوف في ابداعهم في مجال الاسلوب باللغة الانجليزية) ، والتصرف وكأنما ينتمي الشخص المنفي الى اي مكان لأن لا مكان له . ومع ذلك فكلا التصرفين ينطوي على خطورة؛ وهذا ما يشكل جزءاً من متعتهما .

وباختصار إذاً ، فالمنفى لا يكون ابداً حالة رضى ودعة أو أمان ، ومهما ولد من نظريات أو دروس مطمئنة نسبيا في الثقافة بعامّةٍ ، فمعظمها يظل هشاً وواهياً امام سخرية الحياة في المنفى وعدم استقرارها . وقد عبر الشاعر والاس ستيفنس عن المنفى في قصيدته الرائعة فقال : « المنفى هو حالة الشتاء » الذي يجاور الصيف والخريف وتباشير الربيع ولكنه لا ينالهم ابداً . وربما كانت تلك طريقة اخرى للقول إن حياة المنفى تسير بحسب تقويم مختلف ، فصوله أقل وضوحاً واقل رتابة وتتابعاً منه في ظروف العيش في الوطن . فالمنفى هو الحياة معاشةً خارج النظام المألوف ، ويعوزها المركز وتتضارب نغماتها ، وما ان يألفها الانسان حتى تنفجر قوتها المزعزعة من جديد .

ترجمة نهاد سالم